تأملات في صقيع موسكو

بقلم خليل تقي الدين

ادب « اليوميات » ادب ضعيف بالاجمال في النتاج العربي الحديث ، فان الكتّاب الذين عالجوه قلة ضئيلة . ولعل الاديب اللبناني المعروف الاستاذ خليل تقي الدين وزير لبنان المفوض في الاتحاد السوفياتي والبلاد السكندينافية يحاول ان يملأ فراغاً يشكو منه ادبنا الحديث حين ينشر عما قريب كتاباً في ادب « اليوميات » بعنوان « في بلاد ستالين » . وقد بعث من ستوكهلم الى « الآداب » بفصل من هذه اليوميات الادبية الطريفة ننشره فيما يلي :

موسكو . خريف ١٩٤٦ . أحقاً هو الخريف؟ فكيف إذن يكون الشتاء ؟... برد . وريح . وصقيع . والثلج يتساقط منذ ايام بلا انقطاع . وموسكو تلبس شيئاً فشيئاً ثوبها الابيض . وهي لن تخلعه قبل عدة شهور!

كتب صاحبي من موسكو الى صديق له في لبنان عُرف بميله الى المبالغة، و « الفشر » في كل ما يرويه من حوادث يؤكد انها وقعت له ، ويُقسم على صحتها بالله وبجميع الرسل والانبياء . من ذلك انه زار مصر فلما عاد الى بلده سأله اصحابه عما اعجبه فيها فقال : منظر القاهرة من فوق الهرم الكبير . قالوا: وهل تسلقته ؟ قال : اجل ، ركبت ظهر ابي الهول فصعد بي الى قمة الهرم . وأضاف : وهذه على الاقل قصة لا يمكنكم الشك في صحتها ، وكل من زار مصر يؤمّن على كلامي ...

اقول : كتب صاحبي من موسكو الى صديقه « الفشّار » هذا يصف له قسوة الشتاء فقال : تصور ان كل شيء هنا يتحول الى جليد في فصل الشتاء فالانهار تتجمد وتصبح طرقات معبدة تسير عليها القطر والسيارات ويلعب عليها الاولاد . والناس حين يسيرون في الشوارع لا يمشون كما تمشون انتم في مصر او في لبنان بل يتزحلقون فاذا هم زحافات بشرية . ونحن هنا لا نأكل الفاكهة بالسكين ، بل نحطمها بالفؤوس و .... امس التقيت في الطريق صديقنا احمد فسألته بصوت عال : الى اين انت ذاهب يا احمد ؟ فلم يجبني ، فأدركت ان كلماتي تجمدت في الطريق فوقفت فيما بين فمي واذنيه ...

ومنذ ذلك اليوم شفي الصديق المقيم في لبنان من داء « الفشر » وعاد لا يروي قصة صعوده الى الهرم الكبير ممتطياً ظهر ابي الهول .

واقسم إن كانت هنالك مبالغة تقرب من الحقيقة ، فهي قصة تجمّد الكلمات هذه .

شتاء العالم ان طال فثلاثة اشهر . وكم من بلاد شتاؤها شهر او شهران . اما شتاء موسكو فيمتد من اوكتوبر الى آخر نيسان .

والشتاء في سائر انحاء الدنيا مطر يعقبه صحو ، وصحو يعقبه مطر . وبين هذا وذاك شمس او ظلّ شمس . ودفء او شبه دفء . وتستطيع مع ذلك ان تنصرف الى عملك وانت واثق ان اعضاء جسدك ستظل في مكانها ، وعلى حالها . فان غادرت البيت في الصباح وفي يديك عشرة اصابع ، وفي رجليك مثلها ، عدت اليه في المساء وتفقدت اصابع يديك ورجليك فاذا هي هي ، لم يفقد منها شيء .

واما في موسكو – حفظك الله ووقاك – فالشتاء شيء مخيف ، هائل ، جبار ، لم تسمع به اذنان ، ولم تر مثله عينان ..

يخيل اليك ان كل شيء مقلوب ، وان الطبيعة قد غضبت على بني البشر فاحالت الضياء ظلاماً والارض مقبرة فاغرة فاها عند كل منعطف وفي كل طريق.

النهار يطلع قبيل الظهر بساعة. ولكن اي نهار ؟ انه شبه ضياء شاحب ، اغبر ثقيل يصدم النظر ويتعبه . السماء لاصقة بالارض فعيناك لا تريان الا ضباباً كثيفاً وغيوماً فوق غيوم. حتى اذا مرت ساعات ثلاث خيم الليل ، أو قل ان الليل الاغبر قد عقبه الليل الاسود. ولا فرق بين هذا وذاك ! وتصور انك تعيش في هذا الجو سبعة اشهر من كل عام طوال بضع سنوات من عمرك وان خيالك يسرح بك كل ساعة وينقلك الى القاهرة او بيروت او دمشق حيث الشمس وحيث الدفء وحيث الضياء. وتصور معي كيف تكون حياتك حين يعذبك الشوق ويلج بك الحنين !..

في اوائل الشتاء يسقط الثلج بغزارة واستمرار ، والثلج لا يسقط الا اذا ظلت درجة الحرارة متأرجحة حوالى الصفر. واما المطر فلا يسقط ابداً في الشتاء . ألم اقل لك ان كل شيء في

موسكو مقلوب ؟ فالمطر ينقطع في الشتاء ، وينهمر في الصيف. لذلك انعدمت في روسيا صناعة المظلات ومعاطف الكاوتشوك وندر استعمالها ؛ فان رأيت في شوارع موسكو رجلاً يحمل مظلة فاعلم انه قادم من لندن او باريس ، ولا يندر في هذه الحالة ان ترى روسياً في الشارع ينظر الى هذا « البورجوازي » القذر، حامل المظلة ، ثم يشيح بوجهه عنه ويبصق !

ولا يكاد شهر اوكتوبر ينتصف حتى تبدأ عملية عجيبة لم أرَ مثلها في أي بلد آخر ، ولم أرها حتى في استوكهلم عاصمة اسوج، وهي مع ذلك اقرب الى القطب الشمالي من موسكو . وفي وسعك ان تسمي هذه العملية حملة وطنية تشمل روسيا من أقصاها الى أقصاها ، اي تشمل مساحة من الارض تبلغ خمس رقعة العالم . ويقوم بهذه الحملة استعداداً للشتاء مائتا مليون من البشر يعيشون في روسيا .

والعمل بسيط في حد ذاته . ولكنه خطير في نتائجه ، وهو يقضي بسد جميع المنافذ والشقوق في المنازل، والفنادق والمقاهي، والمكاتب ، وكل مكان يسكنه الناس .

إذ ان الابواب والنوافذ والشبابيك لا تكفي للوقاية من البرد .

والتدفئة العامة ، على البخار ، والكهرباء ، والحطب ، وفي المدافىء لا ترد وحدها غائلة البرد ، ولا تقوى على تحطيم انياب هذا الوحش الضاري الذي يسمونه الصقيع .

بل يجب ان لا تدع في بيتك ثقباً ولو كخرم الابرة ينفذ منه الهواء . وإلا قضيت على نفسك وعلى اولادك بالموت .

والموت في موسكو رخيص . وشائع وسريع . ولا سيما في الشتاء .

والموت في موسكو أمر تافه . عادي لا يلفت النظر ولا يحفل به الناس لكثرة ما ألفوه ، وتعوّدوه .

يجيء العمال فيحكمون اغلاق النوافذ ثم يطلون شقوقها ، وفتحاتها ، ومكان تلاقي النوافذ بعضها ببعض بصمغ كثيف يلصقون عليه الورق حتى يسد كل منفذ . فاذا منظر الشباك قبيح كل القبح وقد علته عصائب الورق طلوعاً ونزولاً ، طولا وعرضاً ، كالضمادات لفّ بها الوجه الجريح .

والنوافذ في موسكو مزدوجة ذات زجاجين بينهما فسحة صغيرة . وهم يلصقون الورق على شقوق الزجاج الخارجي الذي يواجه الخلاء مباشرة ويتركون الزجاج الداخلي بحيث يستطاع فتحه واغلاقه .

واعظم ثلاجة في الدنيا هي هذه الفسحة بين الزجاجين ...

كانت زوجتي تنسى في النافذة احياناً زجاجة لبن او شيئاً من الفاكهة ، فننهض في الصباح فاذا الزجاجة قد تحطمت ، واذا الثمرة قد استحالت كالحجر الصلب . فكنا نعالجها بالمطرقة بدلاً من السكين ! كان اول شتاء قضيته في موسكو شتاء ١٩٤٦ — ١٩٤٧ وكان شتاء قاسياً مخيفاً هبطت فيه درجة الحرارة — وهل تسمى هذه حرارة ؟ ! — الى ٣٣ تحت الصفر؟

وفي ٩ شباط سنة ١٩٤٧ جرت الانتخابات النيابية في طول روسيا وعرضها .

وكان علي بحكم وظيفتي ان اتجول في الشوارع واطوف بمكاتب الاقتراع لارى كيف ينتخب الشعب الروسي نوابه في ظل الشيوعية الحمراء . وتدرعت للبرد ووقفت امام المرآة فكنت اشبه بالاميرال بيرد عندما اكتشف القطب الشمالي .

في رجلي حذاء ضخم داخل خفّ « كالوش » من الكاوتشوك وتحت هذين زوجان من الكلسات الصوفية لبستها الواحد فوق الآخر . وعلى جسدي بضعة ارطال من الثياب السميكة ، ثم البدلة ثم المعطف وهو من الفراء ، ثم قبعة الفرو ايضاً وهي تغطي الرأس والاذنين والفم جميعاً ولا يبقى بارزاً من الوجه سوى العينين والانف .

والانف — لعن الله الانوف في صقيع موسكو — هو العضو الفاسد ، الخطر ، الثائر ، المعرض للتلف والهلاك .

لانك تستطيع ان تحمي من الصقيع كل اعضاء جسدك من دون هذا العضو اللعين .

فللقدمين الحذاء ، ولليدين القفازات ، وللرأس وللاذنين القبعة ، ولكن ما حيلتك بالانف ؟

وأقسم لو ان سيرانو دي برجراك قضي عليه ان يعيش في موسكو لكان قضى شهيد انفه !

وخرجت من منزلي حوالى الظهر ولم اكد افتح الباب حتى لسعني الهواء واحسست ان صفعة الصقيع قد احرقت انفي .

ويومها ادركت ان البرد يلسع كالنار . وان الحدود تتلامس كما يقول العلماء . وهكذا تلتقي الشعوب الضاربة في الهمجية ، بالشعوب التي بلغت اسمى درجات الرقي .

تلتقي على الاقل في بعض نواحي الحياة . وقد رأيت بعيني

في اسوج ، أرقى بلاد الدنيا ، رجالاً ونساء يسيرون عراة في الغـابات ، يتريضون ، ربي كما خلقتني . شأنهم في ذلك شأن الهنود الحمر في غابات البرازيل العذراء .

وركبت السيارة فسارت بي تتهادى على الجليد ذات اليمين وذات اليسار .

وفجأة رأيت احد المارة ينحني على الارض ويأخذ بيـده حفنة من الثلج ثم يصفع بها وجه رجل قبالته ، ويعاود هـذه العملية مرات ، فيدلك بالثلج وجه رفيقه ، والرجل المصفوع لا يبدو منه ما يبدو عادة ممن يهاجمهم الناس في الشارع .

فاستوقفت سائقي وسألته ما الخبر . فضحك وقال لي : يا سيدي هو أنف هذا الرجل . قلت : وما بال انفه ؟ قال : لقد رأى الصافع أنف الرجل أبيض فعلم انه مشرف عـلى السقوط فعالجه بالثلج وهو الدواء الوحيد لبعث الحرارة والدم فيه .

قلت : من الذي كان على وشك السقوط ؟

قال : الأنف الابيض وهي دلالة لا تخطيء عـلى انه بدأ يتجمد . وبعد التجمد الغرغرينا .

... ألم اقل لك انك إذا خرجت من منزلك في الصباح فانت لا تضمن ان تعود اليه في المساء وفي جسدك جميع اعضائك ؟

*

كان تطوافي في ذلك النهار عجيباً ، إذ لم تكد السيارة تسير بي في محاذاة « الموسكفا » ، وهو النهر الذي يخترق موسكو ويصب في « الفولغا » ، حتى لمحتُ على صفحة النهر المتجمد بضعة رجال مقرفصين لا يأتون بحركة ، وبين الواحد والآخر بضعة أمتار . فسألت في ذلك « اناتولي » سائقي الروسي فقال :

— انهم صيادو السمك يا سيدي .

قلت : ننزل اليهم فنرى ما يصنعون .

ونزلت الى النهر بخطى ثابتة . وكنت قد رضتُ نفسي على السير على الماء المتجمد ، واقتربت من احدهم فرأيته قـد جلس على بقايا صفيحة قديمة أكل اطرافها الصدأ ، وهو قد ثقب جليد النهر ، وفتح فيه ثغرة بعرض الكف وأدلى فيها سلكاً دقيقاً في طرفه صنارة . واما طرفه الآخر فقد ربطه الصيـاد بعود أثبته على حافتي الثغرة وجلس في مكانه ساكناً جامداً لا يأتي بحركة ، ويداه غارقتان في جيوب معطفه الضخم المصنوع من اللباد السميك .

وفهمت ان السمك الحبيس تحت الجليد اذا أحس في النهر منفذاً للنور والهواء ، تجمّع حوله فعلق بالصنارة .

ألقيت على الرجل السلام وقلت بروسية ركيكة :

— ماذا تفعل ايها الرفيق « تافاريش » ؟

قال ولم يرفع رأسه : — أصطاد السمك .

فوقفت انظر اليه ، والى أداة صيده العجيبة في هذا الاطار الغريب . وبعد هنيهة قلت :

— هل اصطدت شيئاً ؟

قال : كلا .

وعاد الى جموده . فعيل صبري ، واشتدّ بي البرد ، فعدت أدراجي الى السيارة، ثم لم البث ان أويت الى منزلي .

وانصرفت الى عملي فترة من الوقت ، لكن الصيـاد ظل يشغل فكري ، وكان قد مضى عـلى مروري به نحو ثلاث ساعات ، ولم أقوَ على مقاومة فضولي فخرجت من البيت ثانية وعدت الى حيث خلّفت صاحبي ، فاذا هو في مكانه لم يغـير جلسته في كثير أو قليل ، فكأنني خلّفت ورائي تمثـالاً من الجماد .

قلت : تفاريش ! هل اصطدت شيئاً ؟

قال : كلا .

قلت : وماذا تفعل إذن ؟

قال : اصطاد السمك .

قلت : ومتى يأتي السمك ؟

قال : سيأتي السمك !

وكرّرها مراراً : « ريبا بوديت ، ريبا بوديت » .

وأشاح بوجهه عني ، فانصرفت الى غير رجعةٍ هـذه المرة ، وأنا اعجب من رجل لا يهمه متى يأتي السمك ما دام يعتقد انه سيأتي .

استوكهولم **خليل تقي الدين**